الفصل الرابع

كابوتشي مطران العرب

أحمد زكريا

خلافًا للكثيرين من رجال الدين، بشكلٍ عام، المسيحيون منهم وغيرهم، من مختلف الديانات، لم يكن ترسيم هيلاريون كابوتشي مطرانًا لمدينة القدس لكنيسة الروم الكاثوليك، ليعزل الرجل، دينيًّا، عن الواقع العربي الفلسطيني، الآخذ في التردي، تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي، وتدَرُّج تحول الأطماع الصهيونية في الوطن السليب، تصاعدًا، وتوحشًا، بل وضع على كاهل رجل الدين، العربي، الإنسان، مزيدًا من المسؤوليات، التي تحملها بأفق الوطني، المتديِّن، المناضل، ومن منطلق مسؤولية دينية، لا تنفصل عن مسؤوليته الوطنية، وضميره الأخلاقي.

هيلاريون كابوتشي من أكثر الشخصيات المناضلة إثارة للتقدير، والإعجاب، في آنٍ. ولد في ٢ مارس/ آذار ١٩٢٢، بمدينة حلب بسوريا، واختار أن يسلك طريق رجال الدين، فالتحق بالسلك الكهنوتي، ليسير في دربه، حتى أصبح مطرانًا لكنيسة الروم الكاثوليك، في القدس، عام ١٩٦٥. وبدأ هيلاريون كابوتشي عمله في القدس، كمطران للروم الكاثوليك، قبل عامين من حرب عام ١٩٦٧، فاختلط بأهلها، وباشر مهامه الكنسية بينهم، دون تمييز، واختلط لديه ما هو ديني، بحكم واجبه، وانتمائه الكنسي، بما هو إنساني، بحكم طبيعته، وانتمائه الإنساني، فقدم خدماته لأبناء القدس، ليس بوصفه خادمًا لكنيسته، وشعبها فحسب، وإنما بصفته خادمًا لأبناء القدس، وشعبها قاطبةً.

حين يدور الحديث عن واحد من أهم رجال الدين المسيحي العرب في النصف الثاني من القرن العشرين، فلا بد أن يتداعى للذهن الدور الهام الذي جسده الكثيرون من رجال الدين المسيحي العرب، في التواصل الفكري

والثقافي، بين مجتمعاتهم الشرقية العربية، والمجتمع الغربي، حيث تمثل شهادتهم نافذة صادقة، تطل عبرها الثقافة الغربية، على الثقافات الشرقية، والعربية، بثقة، فتتبلور، عبر تلك النافذة، صورة نقية، وصادقة، عن حقيقة الشراكة الأصيلة، بين المكوِّنات الدينية والثقافية الشرقية، التي تتضافر في توافق جدلي متناسق، لتشكل ثقافة المجتمعات العربية، التي يجتمع عليها أبناء المشرق العربي، دون تمييز ديني، ثقافة مشتركة، لا تعرف النظرة العنصرية الغربية بين المكوِّنات الاجتماعية المتباينة، عرقيًا، وقوميًا، ودينيًا، حيث يحتفظ كل مكوِّن بخصوصيته الثقافية، في إطار وحدة اجتماعية، ودون نمايز فئوي اجتماعي، فيكون التجانس والوحدة الاجتماعية هو القاعدة التي تسير عليها حياة تلك المجتمعات، دون طمس أو إمحاء لخصوصية الهوية الدينية، أو القومية، أو العرقية لمكوِّناتها. الأمر الذي يحطِّم الصورة الزائفة، التي تحاول أن تروِّج لها الجهات الاستعمارية، وفي المقدمة منها المشروع الصهيوني، حول انعزالية المكوِّنات القومية، والعرقية، والطائفية الدينية العربية، وحتمية الصدام الداخلي فيما بينها، من جهة، وحتمية الصدام ما بين الثقافة العربية، والثقافة الغربية، هنا تبرز أهمية الدور الذي جسَّده المسيحيون العرب، وفي الصدارة منهم رجال الدين المسيحي، الواعون لحقيقة المؤامرة الاستعمارية، فيما يتعلق بهذا الأمر، فأفسدوها، وشكلوا صخرة صلبة عززت وحدة المحتمع العربي، في مواجهة ما يحيق به من مخاطر مفتعلة، ودخيلة، على بنيته الاجتماعية المتجانسة. لهذا السبب ناصبت المشاريع الاستعمارية المختلفة العداء لرجال الدين العرب، من المسيحيين والمسلمين على حد سواء، بسبب عدم رضوخهم لتحقيق السياسات الاستعمارية، الهادفة لتفتيت وحدة أبناء الوطن العربي.

أما مدينة القدس، فكما يعلم القاصي والداني، لها مكانة روحية عظيمة، وحالة من القدسية الفريدة، عند المسيحيين والمسلمين، على حدٍّ سواء، فضلًا على قيمتها التاريخية، الثقافية، والتراثية، والوطنية لأبناء فلسطين، والوطن العربي بأسره، فيما ليس للحركة الصهيونية سوى أهمية سياسية، فحسب، وتم إسباغ أهمية دينية يهودية عليها بمبالغات من الحركة الصهيونية، تتناقض حتى مع ما ورد في العهد القديم، وفقًا لما أورده الباحثون في الكتاب المقدس، عربًا وغربيين. فالمدينة بالنسبة للمسيحيين لها قداسة، وأهمية روحية، حيث عاش فيها السيد المسيح، وكرز فيها بالإيمان، والعقيدة المسيحية المجددة، لصحيح الدين اليهودي، الذي أفسده الكهنة، في زمان رسالة السيد المسيح، كما اضطُهد فيها السيد المسيح، وصُلِب، وقُبِر، وفقًا للمعتقد المسيحي، وقام، ثم رُفع، ولا يزال، ما يعتقد أنه قبره فيها حتى الآن مدينة القدس هي المدينة التي باركها دم أول شهيد مسيحي، وهو أسطفانوس، أول الشمامسة. هي المدينة التي بكى عليها السيد المسيح، وفيها ذكريات كثيرة عن معجزاته، فيها بستان جثماني، وجبل صهيون، وجبل الزيتون، وبركة سلوام، وبيت حسدا، وكنيسة المهد، ودرب الآلام، وهي أماكن عديدة، يجلها المسيحيون، ويقدسون ترابها، وذكرياتها الإيمانية العميقة، وربما غابت هذه الحقائق عن ذاكرة العديد من المسيحيين الغربيين، تحت التضليل العقائدي، والضغط السياسي، والإعلامي، الذي تمارسه الحركة الصهيونية، على مدار ما يزيد عن مائة عام، على المجتمع المسيحي الغربي.

كما وأن للمدينة عند المسلمين درجة الاحترام نفسها، والتقديس الروحي، فعلاوة على ما ذكر بالنسبة للسيد المسيح، الذي يقدسة المسلمون كنبي، ويجلون أمه البتول مريم كإحدى ثلاث نساء، فضلهن الله على نساء العالمين، واصطفاها، ونفخ فيها من روحه القدس، لتلد السيد المسيح، بمعجزة الله وإرادته، بنص القرآن، فالمدينة، أيضًا، هي مسرى محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وسلم أجمعين، وفيها الصخرة التي عرج منها، بمعجزة

من الله، وفيها ثالث الحرمين الشريفين، التي لا يشد الرحال إلا إليها، وقدم إليها عمر بن الخطاب، خصيصًا، ليتعهد فيها بنفسه بالأمان لأهلها، وبالحفاظ عليهم، وممتلكاتهم، ومقدساتهم، ودور عبادتهم، بل، أيضًا، لأبناء الدين المسيحي، عمومًا، ممن يعيشون في كنف المسلمين الفاتحين.

هذه هي منزلة المدينة التي تولى هيلاريون كابوتشي مطرانيتها، راعيًا لأبناء الكنيسة الكاثوليكية الشرقية، هذه هي قدسيتها لدى المسيحيين والمسلمين الشرقيين، تلك المنزلة التي لا يستطيع أن يتمثلها ويدركها، إلا مطران عربي، كغبطة هيلاريون كابوتشي.

يقول كابوتشي: «العيش ليس أكلًا وشربًا، الكرامة هي الحياة، والوطن عنوانها، الفلسطينيون ليسوا مجرد لاجئين، هم شعبٌ من ستة ملايين نسمة، من حقهم، إذًا، أسوة بشعوب العالم كلها، تقرير مصيرهم، وإقامة دولتهم المستقلة، على أراضيهم المغتصبة، نحن لا نستجدي، هذا حقنا». ويكمل المطران كابوتشي بناء الجسر، بين ثقافتين، شرقية مهضومة الحقوق، وغربية، تجهل حقيقة ما آلت إليه الأمور، بعد الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية، وقطاع غزة، في ١٩٦٧، من خلال إطلاع الرأي العام الغربي، من مقره، وعبر كتاباته، على ما آلت إليه الأحوال في فلسطين عامة، والقدس خاصة، راسمًا صورًا مؤلمة، تعافها النفوس الحرة، من أي جنس، أو لون، أو دين، فيصف مشهد القدس، في التاسع من يونيو/ حزيران ١٩٦٧، قائلًا: «فيما كنا، سماحة الشيخ سعد الدين العلمي، مفتي القدس، رحمه الله، ونحن، نتجول في شوارع القدس، الخالية، بسبب منع التجول، كي نتفقد أحوال أبنائنا، لنجدة الجرحى، ولتأمين الطعام للجياع، ولتعزية الحزانى، والثكالى، والأرامل، بلغ مسامعنا عبر المذياع صوت حاخام الجيش الإسرائيلي «شلومو غورين»، يصرخ مخاطبًا الجماهير الإسرائيلية الغفيرة، المحتشدة بالقرب من حائط المبكى: (ألا افرحوا، وتهللوا، حلم الأجيال قد تحقق، لقد عدنا إلى ديارنا، لقد حررنا قدسنا، عاصمتنا الأزلية، الأبدية، هي خاصتنا) يستطرد كابوتشي: «شعرت بالألم، والمرارة، بعد أن غابت عن القدس مسحتها القدسية، ورأيت بواكير اضمحلالها، إلى أن تحولت إلى مجرد بلد سياحي، هُوِّدَت، على أن التحدي، والتعدي، بلغا ذروتهما، بإعلانهم القدس عاصمة موحدة أبدية لدولة إسرائيل»[1].

أما ما يُدمي الفؤاد، ويبكي العين، فهو مشهد الشهداء المبعثرة جثثهم على الطرقات، إذ يقول كابوتشي عنهم: «كانوا قد أنتنوا؛ لأن المحتل أصر على تركهم أيامًا تحت الشمس المحرقة، فعملنا ـ سماحة الشيخ سعد الدين العلمي وأنا ـ مع شبان متطوعين، على لملمتهم، ومن ثم دفنّاهم في حفرة واحدة، سماحته تلا صلاته، راحة لنفسهم، وأنا، بعده كذلك، دون التمييز بين مسيحي ومسلم؛ لأن دينهم بعد استشهادهم هو شهادتهم». وقد كانت الشهادة العلنية التي شهدها المطران كابوتشي، ضمن أسباب أخرى، وراء الإصرار الفاتيكاني، إزاء إحقاق حقوق الشعب الفلسطيني، في عيون الأوروبيين، والأمريكيين، والعالم كله، فالفاتيكان يتبنى مبدأ عودة الفلسطينيين إلى أراضيهم، باعتبار ذلك حقًا مشروعًا لهم، أقره القرار ١٩٥، الصادر عن هيئة الأمم المتحدة، كما أن شهادة كابوتشي نبهت إلى الظاهرة الخطيرة المتمثلة في السياسة الإسرائيلية المنتهجة بهدف إفراغ القدس من مسيحييها، ومسلميها، على حدٍّ سواء، فالمسيحية اليوم في فلسطين في خطر، وعدد المسيحيين في كل فلسطين، اليوم، لا يتعدى ١٥٠ ألف مسيحي. وتساءل كابوتشي لماذا هاجروا ورحلوا عن مهد المسيح؟ ويجيب: «لأن الحياة الكريمة تحت نيران الاحتلال أمرٌ شاق، وعسير، ولا تقبله غير أنفس رجال ذوي بأس وعزم شديدين، فالذل، والهوان تحت الاحتلال من جهة،

وبحث الأهل عن مستقبل كريم لأولادهم يدفعهم للذهاب بعيدًا، بينما يبقى مسيحيو العالم مجرد متفرجين على ما يجري»[٢].

كانت هذه من أوائل المواقف الواضحة والمعروفة دوليًا عن نشاط مطران القدس، هيلاريون كابوتشي، إلا أنه هو، أيضًا، الراعي، والراعي عندما يرى الذئب مقبلًا، يضحي بحياته، دفاعًا عن قطيعه. يصرح كابوتشي، ذات يوم: «قطيعي أنا، منذ سنة ١٩٦٥، يوم دخولي إلى القدس، هو الشعب الفلسطيني، شعبٌ رأيته بأم العين تحت الاحتلال، شعبٌ مغلوبٌ على أمره، حقوقه مهضومة، كرامته مداسة، فكيف تريدوني أن أقف مكتوف الأيدي، وأنا أعتبر نفسي أبًا، وراعيًا لهذا الشعب؟».

تتجلى عنده إنسانية الإنسان بأسمى معانيها في موقفين، **أولًا**: مناصرةٌ، بحزم، وبدون هوادة، للمظلومين، والمسحوقين، والمستضعفين، والمضطهدين. **ثانيا**: التصدي للظالمين الطغاة، أيًا كانوا، ومهما بلغ جبروتهم، ومهما كبَّده ذلك من ثمن، وأي نهجٍ آخر، أو سلوكٍ مغاير، هو تهرب من المسؤولية، وغسل للأيدي، بأسلوب بيلاطس.

يتساءل الأسقف كابوتشي: «لماذا وجب عليَّ أن أجنِّد نفسي لنجدة ومساعدة هذا الشعب، مدافعًا عن قضيته المأساوية العربية الفلسطينية؟». ويجيب قائلًا: «لأنني **أولًا**: عربي، أمي ولدتني عربيًا، بلاد العرب أوطاني؛ لذا في أعماقي أشعر بأني مواطن، ابن، وخادم في كل بلد عربي. عندما أسأل عن أصلي، وفصلي، عن حسبي، ونسبي، أجيب، بافتخار، أنا عربي، نحن العرب نؤلف أسرة واحدة؛ لذا نحن أعضاء في الجسم الواحد، وبالتالي عذاب عضو واحد هو، تلقائيًا، مبعث ألم لكل الأطراف، أي عجب، إذًا، بمشاطرتي الفلسطيني العربي عذابه؟، **ثانيًا**: لأنني مسيحي، والعلامة المميزة لي، هي المحبة لأي إنسان، وكل إنسان، وبالأخص المعذب، أيًا كان دينه، مذهبه، قوميته، لغته، هو شخص تعيس، من لا يفقه معنى الحياة، وسعادتها، ولذتها في العطاء، الذي فيه، وليس في الأخذ، كل الغبطة والهناء».

ويضيف غبطته معبرًا عن نهجه المتسامح تجاه الآخر، نهجٌ تغلفه مشاعر الأخوة، ويخلو من أي نزعة عنصرية، نهجٌ يناصر الحقوق الإنسانية في مواجهة الطغاة، قائلًا: «لذلك، إبان اضطهاد النازيين لليهود، قمنا بمظاهرات احتجاج، وكتبنا عرائض تنديد؛ لأن اليهودية دينٌ سماوي نحترمه، واليهودي، المخلوق على صورة الله، هو أخٌ لنا، كما أن الكثيرين من اليهود عاشوا في عالمنا العربي، كمواطنين، لهم كل الحقوق، وما نحارب هو الصهيونية، التي بنت نفسها، ولم تزل، على أنقاضنا، حالمة بقيام إسرائيل الكبرى. إن مدى فاعليتي مسيحيًا هو بمقدار تفاعلي إنسانيًا، وعربيًا، عندما يرى الناس أعمالي الصالحة، آنذاك فقط، يمجدون أبي الذي في السماوات. **ثالثًا**: إني رجل دين، تجسيد المبادئ، والقيم، والأخلاق، من واجباتي، من مقوماتي (أنتم نور العالم، أنتم ملح الأرض)، هل يُعقل، إذًا، أن أتغاضى عن نجدة المعذبين، متجاهلًا ماضيهم؟، ما كنت إذن رجلًا، والدين مني براء».

هكذا، ذَكَّر المطران كابوتشي العالم الغربي بالحقائق الإيمانية الأساسية، التي كثيرًا ما غابت عن ناظريه، بل طالب الحكام، والقيادات الدينية، والدنيوية، بمطالب، أوجَزَها في «تنفيذ القوانين الدولية، التي تحرِّم، **أولًا**: احتلال أراضي الغير بالقوة، وتحتم تحريرها، **ثانيًا**: وتأمر بعدم المساس بمعالمها، **ثالثًا**: وهذا ما تنص عليه قرارات هيئة الأمم، ومجلس الأمن، من جلاء إسرائيل، إذًا، عن كافة أراضينا العربية المحتلة، في فلسطين، وفي سورية، كي نضع حدًا لعذابنا،

ومعاناتنا». والمأرب الوحيد عند المطران كابوتشي للعرب، والفلسطينيين، هو أن «نعيش عيشًا كريمًا حرًّا»[٣].

إذًا، فهذه هي رؤية المطران هيلاريون كابوتشي، وفلسفته في الإيمان المسيحي، الإيمان بالله، هو خلاصٌ لكل الناس، وخاصة المضطَهَدين، والفقراء منهم، وإن تحرير الإنسان لا يتم من خلال ممارسة طقوس معينة، يقوم بها الفرد، ولكن يتم بربط هذه الطقوس، وهذه المعتقدات، بالواقع الذي يعيش فيه عالمنا، وذلك بالتضامن مع إخوتنا في الإنسانية، والوطن، قبل أن نتحدث عن أُخُوتنا في الدين، فالحرية لا تتجزأ، والعدالة لا تكتمل إذا حصرناها في شعبٍ معين، أو جنسٍ معين، فلقد تجاوز كابوتشي النظرة التقليدية للدين، التي كثيرًا ما تجعلنا ننسى أننا عائلة بشرية واحدة، فنتقوقع على مجرد خلاصنا الفردي، أو خلاص أهل ديننا فحسب.

بهذه الرؤية، والمنهج، ندرك أن كابوتشي، كرجل دين مسيحي، كان من أوائل الذين أخذوا بما يعرف بـ «لاهوت التحرير» (Liberation Theology)، بل يمكن تأكيد أنه قد سبق الآخرين، في أمريكا اللاتينية، من واضعي تلك الفلسفة الإيمانية[*]، في الأخذ بفلسفة لاهوت التحرير كمنهج للعمل، والكرازة الدينية، منذ أن تقلَّد كابوتشي مهام منصبه الديني في القدس، عام ١٩٦٥. فمن المعروف أن «لاهوت التحرير في المسيحية هو مدرسة لاهوتية، تركِّز على أن يسوع المسيح لم يكن فقط (الـمُخَـلِّص)، ولكن، أيضًا، مُحَرِّر الشعوب التي ترزح تحت وطأة الظلم. ظهرت هذه الحركة في النصف الثاني من القرن العشرين، في الكنيسة الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية، تطالب بأن تطبيق الإيمان المسيحي يتم بمساعدة الفقراء، والدفاع عن المظلومين»[٤]. وذلك عبر المزاوجة بين العمل الكهنوتي والعمل السياسي، والأعمال المدنية. كما يعتقد لاهوت التحرير بأن الله يتحدث للبشرية، بشكل خاص، عن طريق المعدمين، وبأن الكتاب المقدس لا يمكن فهمه إلا من منظور الفقراء. وترى هذه المدرسة بأن الكنيسة الكاثوليكية في أمريكا الجنوبية تختلف، بشكلٍ جوهري، عن نظيرتها في أوروبا؛ لأن كنيسة أمريكا اللاتينية كانت دائمًا من، ولأجل الطبقة الفقيرة[٥]. ويمكن القول بأن «لاهوت التحرير» هو القراءة الثورية للمسيحية، التي من خلالها أعاد بعض آباء الكنيسة الكاثوليكية، في أمريكا اللاتينية، قراءة المسيحية، لمصلحة الفقراء، والمعدمين، والمظلومين، والمهمشين، في ضوء اتجاه الكنيسة لإعادة تكييف علاقتها مع المجتمع. وهي بذلك تمثل انقلابًا لاهوتيًّا، أدى إلى توسيع مجال الإيمان، بحيث يشمل المسؤولية تجاه الواقع، وتغييره، متجاوزًا تغيير وإصلاح الضمير، والنفس، وحسب، وذلك من خلال قراءة تؤكد على أن «الخلاص لا يكون بالتحرر من الخطايا فحسب، بل بكل أشكال التحرر الأخرى، بما فيها التحرر السياسي والاقتصادي». وهي قراءة تزاوج بين الخلاص، وتحرر الإنسان، وبين الإيمان، والعمل السياسي، وبين ملكوت الله، وبناء العالم، وقد ظهرت حركة (لاهوت التحرير) في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، حين كانت الأنظمة الشمولية، والعسكرية تسيطر على معظم دول أمريكا اللاتينية (بيرو/ شيلي/

(*) يؤرِّخ لولادة «لاهوت التحرير»، عادةً، مع بداية المؤتمر العام لأساقفة أمريكا اللاتينية، في كولومبيا، عام ١٩٦٨، حيث أصدر الأساقفة في هذا المؤتمر وثيقة أكدت على حقوق الفقراء، وقالت بأن الدول الصناعية الكبرى قد اغتنت على حساب دول العالم الثالث. وقد كتب النص الأساسي لهذه الحركة (لاهوت التحرير – liberación Teología de la)، عام ١٩٧١، بيد غوستاف غيتييرز، وهو قسيس ولاهوتي من البيرو. وكان من أبرز وجوه الحركة رئيس أساقفة السلفادور، أوسكار أرنولفو روميرو (اغتيل عام ١٩٨٠)، واللاهوتي البرازيلي ليوناردو بوف، والأب اليسوعي، جون سوبرينو، ورئيس الأساقفة هيلدر كامارا من البرازيل، وأوسكار روميرو، كبير أساقفة السلفادور، وأهم رموز حركة لاهوت التحرير على الإطلاق، فقد كان أكثر آباء الكنيسة انحيازًا للفقراء، وهو القائل: «فالإيمان الذي يكتفي بحضور قداس الأحد، ويرضى بالظلم باقي الأسبوع لا يقبله الله». وغيرهم كثيرون من رجال الدين المسيحي في أمريكا الجنوبية.

أوروجواي/ الأرجنتين/ البرازيل)، كما لم تكن دول أمريكا الوسطى، أيضًا، تختلف عنها كثيرًا، حيث كانت حروب العصابات، ومواجهات الحرب الباردة تعم كولومبيا، وفنزويلا، ونيكارجوا، فكانت هناك حالة من القهر، والاستبداد، تسيطر بها السلطات العسكرية الشمولية على شعوبها التي كانت ترزح تحت نير الجهل والفقر، وكان ثمة تحالف غير معلن يكرِّس هذه الأوضاع بين القوى الرئيسية المسيطرة على هذه البلاد، وهى: الطبقات الحاكمة التي ارتبطت، بشكلٍ سافر، بمصالح القوى الاستعمارية الإمبريالية المركزية في العالم، وعلى رأسها الولايات المتحدة، وكبار الملاك والإقطاعيين، الذين ارتبطت مصالحهم بالرأسمالية الأمريكية، بالإضافة إلى عددٍ من كبار رجال الكنيسة الذين كانوا بمثابة ضمان لاستمرار، وتكريس، هذه الأوضاع الظالمة، حتى صار الفقر، والظلم الاجتماعي كأنه قَدَر ينبغي للمؤمنين أن يحافظوا عليه![٦]. وانتشر دعاة «لاهوت التحرير»، من آباء الكنيسة الكاثوليكية في معظم مناطق أمريكا اللاتينية، فكان «ليوناردو بوف» في البرازيل، و«بابلو ريتشاردز» في شيلي، و«أوتومادور» في فنزويلا، و«خوان لويزسيجوندو» في أوروجواي، و«خافيير جورستياجا» في نيكاراجوا، لكن ثمة أعلام بارزة لحركة لاهوت التحرير، يُنسب إليها صياغة مبادئ الحركة وأفكارها الرئيسية، ويعتبرها الكثيرون بمثابة الآباء المؤسسين للاهوت التحرير، وعلى رأس هؤلاء يأتي القس الكولومبي «كاميللو توريس»، ورغم أنه كان ينتمي، في بدايته، لأسرة عريقة وثرية، في بوجوتا العاصمة، وتعلَّم في أوروبا، ونال من بلجيكا الدكتوراه في علم الاجتماع، فإنه انقلب فكريًّا، تمامًا، بعد الدراسات الميدانية التي أجراها لحياة الفقراء، خاصة في الريف الكولومبي، فأصبح ثوريًّا، راديكاليًّا، وشكَّل، سنة ١٩٦٥، «الجبهة الواسعة»، وهي تحالف سياسي يسعى للاستجابة لمتطلبات غالبية أهالي بلاده، فكانت النتيجة طرده من الحياة السياسية، والدينية، أيضًا، والأمر الذي دفعه للانضمام إلى جيش التحرير الوطني المسلح[٧]. وفي رأي الأب وليم سيدهم فإن:

- منهج لاهوت التحرير يعني التركيز على تضامن الله، وخلاصه لكل الناس، وخاصة الفقراء منهم.
- لاهوت التحرير مبنيٌّ على المسيح الذي نادى بتحرير الفقراء، وشفى منهم المرضى، والعميان.
- لاهوت التحرير مبنيٌّ على قراءة جديدة للإنجيل، مرتكزة على العلوم الاجتماعية، والدراسات اللغوية.
- لاهوت التحرير يدفع الإنسان، سواءً كان مسيحيًّا، أو مسلمًا، أو بوذيًّا، لكي يكون نموذجًا للإنسان الملتزم بقضايا المجتمع، كل فرد حسب إمكانياته، وجهده.
- لاهوت التحرير ينادي بأن الله موجودٌ، وحيٌّ في التاريخ، وموجودٌ من خلال أشخاصٍ آمنوا به.
- لاهوت التحرير ساعد على المناداة بحق الإنسان في التعليم، وممارسة حقوقه السياسية، والصحية، والاقتصادية، كاملة[٨].

إنها الأفكار نفسها التي يتبناها المطران كابوتشي، أفكار الإيماني المسيحي بالله، وبالحق الإنساني للبشر المحرومين، حين التقت بوجدان كابوتشي، وبانتمائه الوطني العربي، وخصومته المبدئية مع الظلم، والعدوان الصهيوني، تلك هي الأفكار التي وقفت دافعًا له، حين التقت إرادته بإرادة المقاومة الفلسطينية، باعتبارها مترجمًا حقيقيًّا لإرادة تحرير الإنسان، التي تعتمل داخل أبناء الشعب الفلسطيني، وبالقدر نفسه كانت تعتمل داخل نفس المطران الثائر كابوتشي،

وعبر السنوات من ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٤، قدم كابوتشي لكنيسته، ولشعبها، وللشعب الفلسطيني، وللوطن المحتل، وللمقاومة الفلسطينية الكثير، ويقول عنه «يعقوب بيري»، رئيس جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي الأسبق، في كتابه الشهير «الآتي لقتلك، استبق واقتله»(*): «كان يجهر بالحديث ضد الاحتلال [الإسرائيلي] للمناطق [المحتلة]، وكثيرًا ما بادر إلى تنظيم مسيرات. وبعد موت الرئيس المصريّ جمال عبد الناصر، وقّع على عرائض تدين الاحتلال [الإسرائيلي]، وكان يوزّع الأموال على أُسر (المخرَّبين) الذين قتِلوا، وهو الذي اقترح فكرة تشكيل لجنة سريّة، تقوم بتنظيم المعارضة المكثّفة للاحتلال، وأيّد فكرة منع العمّال العرب من المناطق المحتلة من العمل في (إسرائيل)، وقال: «من الأفضل للعربيّ أن يأكل الخبز فقط، من قيامه بخدمة الإسرائيليين».

في شهر مايو/ آيار ١٩٧٤ اكتشف جهاز «الشين بيت» جهاز الأمن العام (الإسرائيلي)، ثلاثة صواريخ كاتيوشا، قرب حي أرمون هنتسيف، بجنوب شرق أورشليم ـ القدس، موجَّهة، وجاهزة للإطلاق، باتجاه وسط المدينة، وقبل ذلك بيوم، اكتُشفت في القدس، أيضًا، عبوة ناسفة، مكوَّنة من ثلاث قنابل «بازوكا»، وفي الشهر ذاته جرى اعتقال ثلاثة أشقاء من عائلة «ملاعبة»، كانوا وراء سلسلة عمليات مقاومة ضد الاحتلال، بينها قتل سائق سيارة أجرة، وتفخيخ سيارته. وتبين انتماؤهم إلى حركة «فتح»، وبحصولهم على وسائل قتالية عديدة، عبر مخبأ سري، في مدرسة تعود للكنيسة اليونانية الكاثوليكية، في حي بيت حنينا، قاموا، فيما بعد، بإخفائها في ثلاثة مواقع أخرى.

تعزز لدى «الشين بيت» جهاز الأمن العام (الإسرائيلي) الاعتقاد بأن نقل الأسلحة المستخدمة في العمليات الأخيرة يتم عبر معابر حدودية رسمية، وبواسطة أشخاص يحق لهم المرور دون الخضوع للتفتيش، مثل مستخدمي الأمم المتحدة، والدبلوماسيين، ورجال الدين من الكنائس المسيحية. غير أن هذا الاعتقاد لم يكن كافيًا؛ لذا واصل الجهاز عمله الاستخباري لتعقب مصدر الأسلحة، وآلية نقلها.

من جانب آخر استطاع جهاز «الشين بيت»، وفي فترات سابقة، دس أحد العملاء له على أحد القادة الفلسطينيين، حيث تقدم ذلك العميل بمعلومات خطيرة خلال تلك الفترة، ووفقًا لرواية «يعقوب بيري»، رئيس الشاباك (الأمن الداخلي الإسرائيلي) الأسبق، والذي كان يشغل، في تلك الفترة، منصب رئيس جهاز الشين بيت في القدس، والواردة في مذكراته، كان هذا العميل مدرسًا يسكن في جبل المكبِّر، بالقرب من قصر المندوب السامي. وتم تلفيق تهمتين له، هما أنه المسؤول عن حادثين وقعا في القدس: أحدهما حريق شبّ بالقرب من مصنع للورق في حيّ روميما بالقدس، والثاني انفجار عبوة ناسفة بالقرب من منزل نائب مأمور ضريبة الدخل. ثم تم إرسال العميل إلى بيروت، بعد أن تم تزويده بالمعلومات اللازمة، حيث اجتمع مع قائد منطقة القدس في القطاع الغربي من حركة «فتح»، (أبو فراس). وادعى العميل أنه، وبمبادرة شخصية، قام بتنفيذ العمليتين سالفتي الذكر. لم يكن من طبيعة أبي فراس تصديق قصص من هذا النوع، ولكنه صدّق ما رواه العميل، في هذه المرة، فدفعه أبو فراس إلى العمل في صفوف «فتح»، وفقًا لما أورده بيري في مذكراته، مفسرًا ذلك بوجود ضغط على مجموعات المقاومة الفلسطينية بالداخل، نتيجة نقص السلاح، الذي تسبب فيه تشديد جهاز «الشين بيت» لعملياته ضد المقاومة، ما أفقدها الجزء الأكبر من

(*) يعقوب بيري، الآتي لقتلك، استبق واقتله، عن الموقع الإليكتروني:
http://www.palestine-info.info/arabic/books/alkadem/kadem13.htm

مخزونها اللوجستي من السلاح والذخيرة. وطبقًا لما أورده بيري، كان «أبو فراس» هو الاسم الحركيّ لمصطفى عيسى اللفتاوي، وهو شخصية قوية، من مواليد القدس، وتولى منصب محافظ منطقة رام الله من قبل السلطة الفلسطينية، فيما بعد، وقد اشتهر عنه، في تلك الأيام، أنه من كبار قادة التنظيمات الفلسطينية، منضبط، ذكي، قويّ الشخصية. ويعزو إليه بيري تنظيم عدد كبير من عناصر المنظمة، وإدخال وسائل قتالية إلى المناطق المحتلة، من الأردن، وسورية، ولبنان، مستخدمًا وسائل مختلفة جيدة التمويه، والتخفي. كما حمَّله «بيري» مسؤولية عدد من العمليات المسلحة، والتفجيرات الشديدة، التي نفَّذتها المقاومة في إسرائيل. في السادس من يونيو/ حزيران ١٩٧٤، وبناء على مكالمة هاتفية، حضر يعقوب بيري، مدير جهاز «الشين بيت» في القدس إلى شقة (بيت آمن)، كان يستخدمها ضباط الجهاز للاجتماع بعملائهم وجواسيسهم على المقاومة الفلسطينية، وتعود تلك الشقة، الكائنة في مبنى قديم عند مداخل مدينة القدس، لوالد أحد عملاء جهاز الأمن العام «الشين بيت». حيث وجد العميل المشار إليه بصحبة ضابطين من «الشين بيت»، هما مركز اللواء «روني»، ومركز المنطقة «شلومو»، كان العميل قد عاد، لتوِّه، من دمشق، وروى أنه اجتمع مع أبي فراس، الذي اصطحبه إلى كراج، يقع في إحدى ضواحي دمشق، ودخلاه من فتحة جانبية. حيث كانت تقف سيارة مرسيدس حديثة، انشغل عددٌ من العمال بتفكيك قطعها. فطلب أبو فراس من العميل «أن يتعلّم التفاصيل الكاملة للعمل الذي يجري على السيارة». بعد ذلك قال أبو فراس للعميل، إن هذه السيارة ستتوجّه إلى القدس، وهي تحمل أسلحة، وذخيرة مخبأة بداخلها. وعند وصولها إلى القدس، سيكون عليه القيام بإخراج السلاح منها، وتسليمه إلى عناصر المقاومة هناك، وأنه سيتم تزويده بأوامر بهذا الخصوص، لاحقًا. مكث العميل لمدة ثلاثة أيام في الكراج، حيث تعلَّم، عن كثب، كيفية إخفاء السلاح في السيارة. كانت الأسلحة مكوَّنة من الرشاشات، والذخيرة، والقذائف، والمواد الناسفة البلاستيكية، وأصابع المتفجّرات، وأجهزة لتشغيل العبوات الناسفة. يضيف بيري: «وأصابتنا الدهشة، عندما علِمنا من العميل أن سيارة المرسيدس هي سيارة المطران كابوتشي، وأنها ستصل إلى القدس في اليوم التالي. جرت، على الفور، سلسلة من المشاورات العاجلة، شارك فيها عددٌ من كبار المسؤولين في رئاسة الأركان في تل أبيب. كما أسرع رئيس جهاز الأمن العام «الشين بيت»، يوسف هرملين، برفع تقرير مفصّل لرئيس الحكومة، إسحاق رابين، الذي أصرّ على معرفة مدى صحة المعلومات. وحذر رئيس الحكومة من أنه في حالة اعتقال كابوتشي، دون أسباب صحيحة، فإن ذلك سيؤدّي إلى أضرار سياسية خطيرة. ولكن هرملين أقنعه بأن المعلومات مؤكَّدة، وفي الحال استدعى رئيس الوزراء وزيرَ الخارجية يغئال آلون، ووزير الدفاع شمعون بيرس، ووزير العدل، حاييم تسادوك، لدراسة الأبعاد السياسية المحتملة بعد اعتقال أحد رجال الدين المسيحيين، من ذوي المناصب الرفيعة.

في نهاية الأمر، صدر الإذن باعتقال كابوتشي، شريطة أن يتم العثور عنده على وسائل قتالية[٩].

في السابع من أغسطس/ آب ١٩٧٤، عَبَر كابوتشي جسر اللنبي بسيارته، دون اعتراض من الإسرائيليين، وواصل طريقه إلى البلدة القديمة في القدس الشرقية، وأوقفَ سيارته إلى جانب الكنيسة الإغريقية الكاثوليكية. في هذه الأثناء أرسل جهاز الشين بيت عنصرين، رجلٌ وامرأة، متخفّيين في زيّ سائحين، حيث قام أحدهما بتصوير الآخر، على خلفية المبنى، مع حرصهما على أن تظهر سيارة المرسيدس في الصور. ولاحظ ضباط الجهاز انخفاض مؤخّرة السيارة باتجاه الأرض، مقارنةً بصورٍ سابقة، وكان الاستنتاج بأن السبب هو الحمولة الثقيلة التي

كانت محمَّلة في صندوق السيارة الخلفي، في مخابئ سرية. يضيف بيري: «وضعت رقابة حول الكنيسة. وفي اليوم التالي، في ساعات الصباح المبكرة، علِمنا من المراقبين أن كابوتشي استقل سيارته، وانطلق بسرعة باتجاه رام الله. قرّرنا المخاطرة، وإصدار الأمر بإلقاء القبض عليه. فقامت سيارة تابعة لجهاز الأمن العام بسدّ الطريق أمام سيارة كابوتشي، في طريق القدس ـ رام الله. وتوجّه رجالنا إلى المرسيدس، متخفّين في زي شرطة مدنية، واتهموا كابوتشي بأنه كان يسير بسرعة فائقة، وطلبوا منه فحص رخصة السواقة، ومستندات السيارة. وفي هذه الأثناء، قام أحدهم بفتح أبواب السيارة، وعاد وأغلقها، وانحرف إلى جانب الطريق، حيث أبلغنا، باللاسلكي، بأن أبواب السيارة ثقيلة أكثر من اللازم. وفي تلك الحالة، صدرت الأوامر باعتقاله». ثمَّ نُقِل كابوتشي، والسيارة، إلى كراج الشرطة في المسكوبية، وأحيط الكراج بحراسة مشدّدة، بعد تفريغه من السيارات الأخرى، وتم التعتيم، كي لا ينكشف أمر اعتقال كابوتشي في هذه المرحلة. وجرى تفكيك جميع أجزاء السيارة، وإخراج الأسلحة والذخائر المخبّأة بها، ومنها ٤ رشاشات كلاشينكوف، ومسدسان، وعدة طرود، تحتوي على متفجرات بلاستيكية، وصواعق كهربائية، وقنابل يدوية، وما إلى ذلك[١٠]. وفي تلك، الأثناء كان رئيس جهاز الأمن يجلس في مكاتب الشرطة، في مبنى مجاور، حيث كان في انتظار الانتهاء من العمل. في اليوم نفسه، تم إطلاق سراح كابوتشي، مع سيارته، بعدما تم إعادة تجميع أجزائها، دون ترك أية آثار. ثم تم الضغط الأمني على المطران، حيث تم وضع الحمولة (حقيبتي أسلحة زائفة)، في السيارة؛ لأنه وفقًا لتعليمات أبي فراس، كان من المقرّر أن يوقف المطران سيارته، وهي محمَّلة بالسلاح، في مكان معين، وكان من المقرّر أن يحضر العميل إلى ذلك المكان، ويأخذ السيارة، ويقوم بتفريغ الحمولة منها إلى الحقيبتين المذكورتين، وإرجاع السيارة بالحقيبتين إلى المطران، وفقًا لتعليمات مشغّليه من عناصر «فتح»، حيث يتسلم الحقيبتين فيما بعد، عناصر أخرى من «فتح». قام «الشين بيت» بمراقبة الشخص، الذي حضر لتسلم الحقيبتين، اللتين كانتا مليئتين بمواد مزيّفة. «وهكذا، تمكّنا من اكتشاف مجموعة كبيرة من (المخرِّبين) كانت الوسائل القتالية ستصل إليها»، طبقًا لرواية بيري[١١]. في الثامن عشر من أغسطس/ آب، قُدِّم المطران إلى المحكمة، لإصدار أمر باعتقاله، بتهمة تهريب السلاح، والمواد (التخريبية)، وبتهمة التعاون مع منظمات معادية (لإسرائيل). حُكِم على المطران بالسجن اثني عشر عامًا، ومنذ اللحظة التي دخل فيها إلى السّجن، بدأت موجة من الضغوط، من جهات مختلفة في العالم المسيحي. بالإضافة إلى وضع اسم المطران كابوتشي على رأس قائمة الذين طالبت المنظمات الفدائية بالإفراج عنها، كلما سنحت الفرصة، وأسر الفدائيون بعضًا من الإسرائيليين. إلا أن السلطات الإسرائيلية كانت ترفض باستمرار فكرة الإفراج عن كابوتشي، قبل انتهاء مدة محكوميته. يقول كابوتشي في هذا الصدد: «ضميري ووجداني فرضا عليَّ أن أهب لمساعدة هذا الشعب، ولقاء مساعدتي ودفاعي عن حقوقه، ألقيَ القبض عليَّ، وحُكم عليَّ باثنتي عشرة سنة سجن، قضيت منها ٤ سنوات، خرجت بعدها، بناءً على تدخل الفاتيكان، في شخص البابا بولس السادس، رحمه الله، تدخل البابا لأنني، آنذاك، كنت مضربًا عن الطعام، وقد مضى على إضرابي هذا ٣٧ يومًا، نزلت خلاله ٣٥ كيلو من وزني، وبالتالي كانت حياتي في خطر، فتدخل البابا لإنقاذ حياتي، وبعد أخذ وردٍّ طويلين بين الفاتيكان وإسرائيل، قبلت إسرائيل بإطلاق سراحي، بشرط أن أخرج دون أن أعود، وكان ذلك في ٢٠/ ٢/ ١٩٧٨م، ولم أزل، حتى هذه الساعة، أنتظر عودتي إلى وطني، إلى قدسي، وشعبي، أنتظر نهاية غربتي»[١٢]. اضطر مناحيم بيجن، رئيس وزراء الكيان الصهيوني، حين ذاك، للإفراج عن المطران كابوتشي، رضوخًا للضغوط التي مورست على الكيان الإسرائيلي

من جهاتٍ عدة، وسعيًا إلى تحسين العلاقات الإسرائيلية مع الفاتيكان، حيث تم إبعاد المطران إلى الفاتيكان. ومنذ ذلك التاريخ، أصبح كابوتشي من أبرز دعاة القضية الفلسطينية في كافة أنحاء العالم. حيث عكف في منفاه على نشر الدعاية لصالح القضية الفلسطينية. وفي العام ١٩٨٨، كان من المقرّر أن ينضم إلى «سفينة العودة»، التي كانت بمثابة رمز للعودة الفلسطينية.

في فبراير/ شباط من العام ١٩٨٨، تم توجُّه ١٣٥ فلسطينيًّا إلى اليونان، الذين كانوا قد طرِدوا من المناطق المحتلة في العام ١٩٦٧. وكان بعضهم من الشخصيات الفلسطينية البارزة، مثل عبد الحميد السائح، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني. وكان من المقرّر أن يصعدوا على ظهر السفينة، مع المئات من رجال الإعلام، من جميع أنحاء العالم، والوصول إلى شواطئ فلسطين المحتلة، ويطالبوا بالنزول من السفينة، ومواجهة معارضة إسرائيل، وفضح تعنتها أمام العالم، لإحراجها، إلا أن وقوع انفجار مشبوه، على سطح السفينة المذكورة، حال دون اكتمال تلك المحاولة.

في مارس/ آذار من العام ١٩٩٤، وأثناء وجوده في دمشق، اجتمع كابوتشي مع وفدٍ من عرب فلسطين المحتلة ١٩٤٨، كان يقوم بزيارة لسورية، وقد استقبله أعضاء الوفد بالأحضان، وبحفاوةٍ شديدة، حيث أكّد المطران لهم «أن العودة إلى الديار ستكون قريبة». في مقام آخر ناشد المطران كابوتشي العالم الحر وقْف إجراءات تهويد القدس، مذكِّرًا، بالإجراءات التي اتخذتها قوات الاحتلال، بعد عشرين يومًا من السابع من يونيو/ حزيران ١٩٦٧، عندما اتخذ الكنيست القرار ٢٠٦٤، القاضي بضم القدس، وتوحيدها، وأتبعه بإجراءات متتالية، غيرت مع الأيام معالمها كليًّا، بغية تهويدها، ويذكر المطران من تلك الإجراءات:

١ ـ عزل القدس عن الضفة الغربية سياسيًّا، إذ منحت سلطات الاحتلال للمقدسيين هوية مقدسية، بعد إحصاءٍ دقيق.

٢ ـ حل مجلس أمانة القدس العربية، وإلحاق موظفيها بالبلدية الإسرائيلية.

٣ ـ نقل بعض المؤسسات الرسمية الحكومية الإسرائيلية إلى القدس، بهدف إلغاء قطاع الخدمات العربية، لاستيعابها.

٤ ـ المباشرة بتطبيق المناهج الإسرائيلية في الثقافة، والتعليم.

٥ ـ تصفية شركة كهرباء القدس، أهم مرفق اقتصادي عربي.

كما نبَّه المطران كافة المعنيين، وخاصة في المنظمات الدولية، والمسؤولين عن التراث الإنساني، إلى المحاولات الإسرائيلية للقضاء على التراثين، الإسلامي، والمسيحي، ذلك لمضيِّها في غيِّها تجاههما على قدمٍ وساق، ومن المحاولات الإسرائيلية التي فضحها المطران بهذا الخصوص:

١ ـ الحفريات الجارية حول، وتحت المسجد الأقصى، لتصديعه، وتخريبه.

٢ ـ محاولة أولى، وثانية، لإحراق أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين.

٣ ـ مصادرة أديرة، واعتداء على كنيسة القيامة، وسرقة تاج السيدة العذراء، إضافة إلى مصادرة عقارات إسلامية، ومتحف الآثار الفلسطينية.

٤ ـ تدمير أحياء عربية بكاملها: حي الشرف، حي الباشورة، حي المغاربة، فيقول: «رأيتهم بأم العين يهدمون مئات المنازل، ويهجِّرون آلاف السكان، لإحداث الباحة الكبيرة أمام (حائط المبكى)، لاستيعاب أكبر عدد من المصلين اليهود».

يردف غبطته بقوله: «إن إسرائيل فيما تخرِّب بيوتنا، وتستولي عليها، تقوم ببناء آلاف الوحدات السكنية، تنفيذًا لمخططها (القدس الكبرى)، ولفصل القدس نهائيًّا عن الضفة الغربية»[١٣].

عمد كابوتشي لإظهار موقف العرب عامةً، حين نطق باسمهم مجتمعين، مسيحيين ومسلمين، والفلسطينيين خاصة، من قضية السلام، للتأثير في نفوس مستمعيه من رجال دين، ودنيا في العالم، والعواصم الغربية، فيقول: «نحن طلاب سلام، والسلام هو إستراتيجيتنا، نحن نعشق السلام؛ لأننا نرى فيه طاقة، وكنزًا، وعندما نتكلم عن السلام، فنحن صادقون لأنه في السلام وحده الخلاص، وطالما لا ننعم بالسلام، نبقى معذبين، مشردين، تائهين، بدون كرامة، إذن السلام في مصلحتنا».

فيما يثير المطران في العقول تساؤلًا حول مدى جدية إسرائيل في السلام، حين يقول: «إسرائيل تتكلم عن السلام، وتعمل للحرب، ولعل تصريحات كبير الحاخامين، في السنوات الماضية هودي عودي، يكشف عن نواياهم، عندما وصف العرب بالأفاعي، قائلًا: إن الرب ندم لأنه خلق العرب من ذرية إبراهيم، هم، إذن، لا يريدون السلام، فهو، في نظرهم، العدو الأكبر؛ لأنه يعني الحدود الواضحة، وإسرائيل لا تزال تحلم بإسرائيل الكبرى، من النيل إلى الفرات، هي لا تريد السلام؛ لأنه لا يمكنها، بعد ذلك، أن تدعي بأنها محاطة ببلاد عربية، تريد أن تنقض عليها».

على الرغم من إبعاد المطران كابوتشي عن شعبه، وكنيسته، وموطن قلبه القدس، فإنه تمسك بالارتباط بتلك المقدسات، فلم يفوِّت فرصة للتواصل مع وطنه العربي الكبير، فتعددت زياراته للمنطقة العربية، فرغم أن قضية القدس قد استوعبت سني حياة المناضل العربي الكبير، فإن مواقفه، في واقع الأمر، قد تعدت القدس، وفلسطين المحتلة، ليشارك في عدد من المشاهد، التي عاشها العالم العربي، جريحًا، كسيرًا، فهذه زيارته البارزة للعراق، في أوائل ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٠، إبان محنة الشعب العراقي، وهو يخضع لحصار دولي شامل، لم يرحم احتياجات أبنائه، ومعاناتهم. فقد ترأس المطران كابوتشي وفدًا من رجال الدين، والمثقفين الإيطاليين، قادمين من دمشق إلى بغداد، على متن طائرة سورية، حيث قال المطران كابوتشي: إن زيارته لبغداد تستهدف التعبير عن التضامن مع الشعب العراقي، ضد الحصار الدولي المفروض عليه، والذي أدى إلى وفاة الآلاف من شعبه، جوعًا، ومرضًا. وقد جاءت رحلة كابوتشي لتعمِّق عند الكثير من الدول الأوروبية رفضًا واضحًا للهيمنة الأمريكية هناك، والتي كانت أيضًا، ولا تزال، سببًا رئيسيًّا فيما تقوم به إسرائيل من جرائم ضد الإنسانية في الأرض الفلسطينية المحتلة. كما شكر المطران كابوتشي العراق، وشعبه، لما كان يقدمه، آنذاك، من دعم مادي، ومعنوي للانتفاضة الفلسطينية في الضفة الغربية، وقطاع غزة. ونلاحظ بأن فلسطين، والقدس لم تغب عن تفكير المطران، ولا وجدانه، حتى وهو في زيارة دعم معنوي لشعب العراق، في محنته تحت الحصار[١٤].

تعددت زيارات المطران للمنطقة العربية دعمًا لشعوبها في مواجهة الضغوط الاستعمارية، فكانت زيارته لوطنه سوريا، نهاية شهر مايو/ آيار ـ أوائل يونيو/ حزيران ٢٠٠٧، حيث التقى كبار رجال الدولة، للتعبير عن دعمه للشعب

السوري، فقد استقبل غبطته كلّا من السيد وليد المعلم، وزير الخارجية، والدكتور محسن بلال، وزير الإعلام، حيث بحثوا تطورات الأوضاع في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وما يعانيه الشعب الفلسطيني جراء الممارسات التعسفية لسلطات الاحتلال الإسرائيلي، وتم التأكيد على ضرورة رفع الحصار الجائر المفروض على الشعب الفلسطيني[١٥]. كما التقى غبطته بعد ذلك الدكتور محمود الأبرش رئيس مجلس الشعب، فضلًا على لقائه بالمهندس محمد ناجي عطري، رئيس مجلس الوزراء، حيث تحدث المطران كابوتشي مع مستقبليه عن معاناة الشعب الفلسطيني من الانتهاكات، والاعتداءات الإسرائيلية الخطيرة، التي ترتكبها قوات الاحتلال الإسرائيلي ضد الشعب، والمقدسات الدينية الإسلامية، والمسيحية في فلسطين، مؤكدًا بأن ما تتعرض له سورية من ضغوط ناجمة عن مواقفها القومية، والوطنية الثابتة، واحتضانها لأشقائها الفلسطينيين، ووقوفها إلى جانب مقاومتهم الباسلة[١٦].

وفي إطار نضالات المطران كابوتشي، فيما يتعلق بقضية اللاجئين، فقد شارك غبطته في فعاليات «الملتقى العربي الدولي لحق العودة»، والتي انطلقت في قصر المؤتمرات بدمشق، يومي ٢٣ – ٢٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٨، تحت شعار «العودة حقّ»، بحضور أكثر من ٤٥٠٠ شخصية دولية، وعربية، فلسطينية وغير فلسطينية، يمثلون ٥٤ بلدًا. وقد أكد كابوتشي، مطران القدس في المنفى، في كلمته التي ألقاها في المؤتمر، بأن حق العودة للاجئين الفلسطينيين حقٌّ غير قابل للنقاش، مشددًا على حق كل فلسطيني لاجئ في العودة إلى وطنه. وقال المطران كابوتشي: «علمتني سورية ألا أتقوقع، وأنا أعتبر أي بلدٍ عربي بلدي، ومن ثم فأنا أعتبر نفسي ابنًا، ومواطنًا فيه، كما علّمتني ألا أعتبر القضية الفلسطينية قضية فلسطينية فحسب، إنما قضية عربية»[١٧].

في خضم الهجمة الوحشية التي كان شنها الجيش الإسرائيلي على أهالي قطاع غزة من المدنيين العزل، والتي امتدت من ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٨ وحتى ١٧/ ١/ ٢٠٠٩، عقابًا لهم على تمسكهم بحقهم في الاختيار، وحقهم في رفض الاحتلال، ورفض الحصار، وتمسكهم بنهج المقاومة في مواجهة نهج الخنوع والاستسلام لإرادة الكيان الصهيوني، وحلفائه من النظام الرسمي العربي، وفي خضم التعاطف الشعبي والرسمي، العالمي والعربي والإسلامي، مع الأهالي المحاصرين في القطاع، والمعرَّضين لأبشع هجمة عسكرية بربرية، شهدتها الإنسانية، على شعبٍ أعزل، وتحت أنظار، وتواطؤ مفضوح من المجتمع الرسمي الدولي، بادرت (لجنة حملة كسر الحصار على غزة) في لبنان، بالتعاون مع «حركة غزة الحرة»، التي تتخذ من الولايات المتحدة مقرًّا لها، بتجهيز حملة تتوجه إلى غزة، عن طريق البحر، لدعم جماهيرها، وباشرت اللجنة أنشطتها بجدية، على مدار عشرين يومًا، لتجهيز وجمع شحنات التبرعات، من جمعيات خيرية لبنانية وعربية، ليتم دفعها إلى القطاع، حيث وصلت كميتها إلى ستين طنًّا من الأدوية، والأغذية، ولعب الأطفال، بالإضافة إلى عشرة آلاف وحدة من بلازما الدم البشري[١٨]. كما تم الحصول على موافقة السلطات اللبنانية بمغادرة اثنين وثمانين متطوعًا، وختمت جوازات سفرهم، وأعطت الضوء الأخضر لانطلاق رحلتهم، وفي اللحظات الأخيرة من عصر يوم الثلاثاء ٣/ ٢/ ٢٠٠٩، وفي الساعة الرابعة عصرًا، تحديدًا، أعلن مسؤول حملة كسر الحصار على غزة أن سفينة (كاظم)، التي كان من المفترض أن تقل المتضامنين، ستبدَّل بأُخرى؛ لأنها لا تملك الإمكانات التي تحافظ على أرواح الركاب، طبقًا لرؤية السلطات الرسمية اللبنانية، وفعلًا حلَّت محلها سفينة (تالا)، وهي، أيضًا، غير مخصصة لنقل الركاب، حُمِّلت المواد الغذائية، والطبية لأهل غزة، على ظهر (تالا)، إلا أنه، وبعد خمس ساعات، أوضحت الحكومة اللبنانية عدم إمكانية إبحار المتطوعين على ظهر السفينة، كونها مخالفة لقوانين النقل البحري،

فهي مخصصة لنقل المعدات، وليس الركاب، ما يتيح لإسرائيل اعتراضها، بذريعة خرق القوانين، وبالفعل، وبعد صخب، واعتراض، واحتجاج من المتطوعين، الذين أسقط في أيديهم، وبعد ضغط من قوى الأمن اللبنانية، لتنفيذ تعليمات الحكومة، تم خفض عدد المتطوعين، بتعليماتٍ من الحكومة اللبنانية التي يبدو أن ضغطًا عنيفًا قد مورس عليها لمنع انطلاق الرحلة، فحُسِمَ القرار (المطران كابوتشي، والعلامة محمد الداعوق، سينطلقان إلى غزة، إضافة إلى أربعة صحفيين من محطتي «New T V» اللبنانية، و«الجزيرة»)، كونهما قادرتين على النقل المباشر[١٩]، وستضعان العالم في صورة ما سيحدث، إن اعترضهم أي طارئ، ثمانية متطوعين فقط استقلوا سفينة «الإخوة اللبنانية» التي يملكها فلسطيني، وترفع علم توجو (الدولة الأفريقية، على ساحل أفريقيا الغربي)، منطلقةً من ميناء طرابلس شمال لبنان، متجهةً إلى لارنَكا بقبرص، ومنها إلى شواطئ غزة، حيث اعترضتها البحرية الإسرائيلية، وأنذرتهم بعدم التوجه إلى غزة، فاستكملت السفينة رحلتها إلى المياه الإقليمية المصرية، إلا أنها عادت، فحاولت الدخول إلى غزة من الجهة الغربية، قبالة ساحل العريش، فاعترضها خمس وعشرون مسلحًا عسكريًّا إسرائيليًّا، على متن زورقين، تابعين للبحرية الإسرائيلية، يوم الخميس ٥/ ٢/ ٢٠٠٩، في عملية قرصنة عسكرية فجَّة، قلَّ نظيرها، على المستوى الرسمي الدولي، حيث أطلق الجنود الإسرائيليون النار على السفينة، لتحذيرها، ومع استمرار السفينة في تقدمها، باتجاه ساحل غزة اقتحمها الجنود الإسرائيليون، المدججون بالسلاح، في عملية قرصنة بحرية صريحة، تحت مرأى ومسمع من العالم أجمع، حيث نقلت سلام خضر، مراسلة «قناة الجزيرة»، عبر هاتفها الجوال، عملية الاقتحام على الهواء مباشرةً إلى فضائية «الجزيرة»، إلى أن انقطع البث، حين انتزع الجنود الصهاينة الهاتف من يدها، ثم تعرضت للضرب مرتين، على رأسها، عندما تمسكت بهاتفها[٢٠]، ثم طرحوها أرضًا، هي ومرافقها مصور «الجزيرة» محمد عليق، وباقي المتطوعين الموجودين على ظهر السفينة، مبتدئين بهاني سليمان، منسق الرحلة، حيث كان أول من تعرض لاعتداءات الجنود الإسرائيليين، الذين ضربوه، وطرحوه أرضًا، ثم رفسوه بأرجلهم، غير مبالين بإصابته بمرض في القلب، كما تم الاعتداء على جميع المتطوعين على ظهر السفينة بالضرب، والسب، والإهانة، حيث بلغ عددهم ثمانية عشر متطوعًا، عند انطلاقهم من سواحل لارنكا القبرصية، فأوثق الجنود أيدي جميع المحتجزين وعصبوا أعينهم، ومنعوهم من التحادث مع بعضهم البعض باللغة العربية، كما فصل جنود الاحتلال المحتجزين بعضهم عن بعض، والتقطوا لهم صورًا بآلات تصوير شخصية، وبواسطة كاميرات الجيش، ثم اقتادوهم إلى باطن السفينة حيث جرى استجوابهم، بعد مصادرة كافة معداتهم من كاميرات تصوير، وهواتف، وأشرطة التسجيل التي صوروها، وخلافه، كما تم قطع الاتصال اللاسلكي للسفينة بالعالم الخارجي، وباتت السفينة تحت سيطرة، وأسر الجيش الصهيوني، الذي اقتادها إلى ميناء «أسدود»، وأُعيد استجواب المحتجزين مرة أخرى، لمدة يوم كامل، في ظروف احتجاز مهينة للكرامة الإنسانية، في مقر أمني بالميناء العسكري، يعتقد أنه يتبع لجهاز الشاباك (الأمن الداخلي الإسرائيلي)، كما تم عزلهم عن أي اتصال بالعالم الخارجي، وحاول أحد الضباط إقناع الرهائن المحتجزين بالتوقيع على ورقةٍ يقرون فيها بأنه تم إطلاق سراحهم، وهم في أحسن حال، لكن هذا الطلب لم يلق استجابة، على الأقل، من سلام خضر، والمصور محمد عليق[٢١]. وفي يوم الجمعة، ٦/ ٢/ ٢٠٠٩، تم إبعاد ثمانية من المحتجزين إلى لبنان، عبر معبر الناقورة، مكبلي الأيدي، بينهم أربعة صحفيين لقناتي «الجزيرة»، و«الجديدة» اللبنانية، وعضو تجمع علماء المسلمين في لبنان، الشيخ صلاح الدين العلايلي، كما تم إبعاد المطران كابوتشي، وخمسة آخرين من الناشطين المتطوعين الذين كانوا على

متن السفينة، إلى الأراضي السورية، عبر الجولان[٢٢]، وكان في استقبالهم عدد من الوزراء السوريين، وقيادات من الفصائل الفلسطينية، فيما أبعد أربعة ناشطين أجانب إلى بريطانيا على متن طائرة أقلتهم إلى هناك[٢٣].

هذا هو المطران هيلاريون كابوتشي، امتلأ قلبه ووجدانه حبًّا لفلسطين، وإخلاصًا لقضيتها، التي هي قضيته الشخصية، من منطلق عروبي صرف، وعلى أسس إيمانية عميقة، بالله، وبحق البشر في الحياة الحرة الكريمة، لم ينفصل عن آلام ومحن شعبه، ومنها ما أرَّقَ ضميره، واعتصر قلبه ألمًا، بما أصاب رفاق الأمس من انقسام وتشرذم، يكتوي به أبناء شعبهم، اليوم، فها هو يوجه رسالة تهنئة لأبناء الشعب الفلسطيني بعيد الفطر، بتاريخ ١/ ١٠/ ٢٠٠٨، يبثهم فيها شوقه إليهم قائلًا: «إن منفاي لا يقل إطلاقًا قسوةً وحرمانًا من سجني. إنَّ الموت إن هو إلا فراق ما هو عزيز، وأنتم أعز ما أملك، يا إخوتي الكرام، يا أبناء فلسطين الحبيبة؛ لذا فراقي القسري عنكم هو موتي المعنوي. يموت الإنسان جسديًّا مرة واحدة. بينما المُبعَد عن وطنه، عن أهله، يموت مرات في النهار معنويًّا لأني أعيش جسمًا فقط، بعيدًا عنكم، فيما بقلبي، بفكري، بضميري، بصلاتي، خاصة، أنا دائمًا معكم، بينكم، حنيني إليكم، ذكرياتي الخالدة معكم، هي خبزي اليومي، هي قُوتي، وقوّتي، على أن الذكريات تولد الحنين، والحنين قتال. الغربة كربة، والهم فيها حتى الرقبة، يقول المثل». ثم يدعو عبر رسالته الشعب الفلسطيني لوحدة الصف قائلًا: «قم يا عبدي، لأقوم معك. اللهم اهدنا الصراط المستقيم، وحِّدنا كما أنت واحد. وحدة الصف، التضامن، هو حجر الزاوية، هو الأساس، هو المنطلق، هو السلاح الفتاك، لما إليه نصبو من تحرير وتحرر. كل بيت ينقسم على نفسه يخرب. إن الانقسام العميق القائم حاليًّا، بين إخوة البارحة، وأعداء اليوم، يدمي فؤادي. إنه سبب الضعف والضياع الذي منه نعاني حاليًّا، ولا يغيِّر الله ما في قوم حتى يغيِّروا ما في أنفسهم؛ لذا، باسم الله الواحد الأحد، بدم شهدائنا الأبرار، بدموع اليتامى، والأرامل، والثكالى، وبعذابات إخوتنا المساجين الأبطال، أستحلف الجميع أن يضعوا حدًّا لخلافاتهم، أن يوحدوا صفوفهم، أن يتحاوروا، ولا يتقاتلوا، كي نحقق ما إليه نصبو، من حرية، وعزة، وكرامة». ويختم رسالته داعيًا الله أن يعيد العيد «على أمتنا العربية بالتضامن، وعلى شعبنا الفلسطيني بوحدة الصف، كي نحقق ما إليه نصبو: قيام دولتنا الفلسطينية المستقلة الحرة السيدة، والقدس الشريف الحبيبة عاصمتها. إنه السميع المجيب، وعلى كل شيء قدير. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[٢٤].

وبعد، فلا يزال هذا المناضل القوي، الجريء، الشجاع، المؤمن بعدالة قضيته القومية، إيمانه بعقيدته الدينية، وقد جاوز السابعة والثمانين من عمره، يحارب معاركه بجسارة، دون ملل، ولا خوف، ولا رهبة، يقابل أعداءه، بقوة وحسم، فيخشاه أعداؤه، خشيتهم من حق شعب يستعصي على النسيان. وحين نفتِّش في قلبه، في وجدانه، لا نجد سوى قلب المحب، وعواطف طفل بريء، يدعو برقة، ووداعة وبراءة، دعاءً يجول ببساطته في نفوس كل البسطاء، من أبناء شعبه: «إلهي، أكلئ بعينك الساهرة حكامنا العرب أجمعين، ليعملوا لما فيه فلاح أمتنا الكريمة، ووحدتها، كي نحقق ما نحلم به، وإليه نصبو، جمع شملنا، كرامًا، مسيحيين، ومسلمين، في رحاب الجامع الأقصى، وكنيسة القيامة، فيما المآذن تصرخ (الله أكبر)، متناغمة مع أجراس الكنائس، وهي تقرع، مهللة لعودتنا، منتصرين، إلى ديارنا، إلى مقدساتنا، إلى قدسنا العربية المحررة، عاصمة دولة فلسطين». إنه، هيلاريون كابوتشي مطران العرب.

* * *

هوامش الفصل الرابع:

(١) الموقع الإليكتروني تبيان، المسيحيون العرب: هيلاريون كابوتشي مثال عن موقع أبونا - ٣/ ٣:

Ln=En&٥٣٥٤=SID&١=٢٠Arabic /index.asp?pageID٪http: / /www.tebayn.com /Tebayn

(٢) الموقع نفسه.

(٣) الموقع نفسه.

(٤) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، مادة لاهوت التحرير:

http: / /ar.wikipedia.org /wiki /٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٧٪D٩٪٨٧٪D٩٪٨٨٪D٨٪AA_٪D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪AA٪D٨٪AD٪D٨٪B١٪D٩٪٨A٪D٨٪B١

(٥) الموقع نفسه.

(٦) حسام تمام، لاهوت التحرير .. مسيحية المعدمين، موقع إسلام أون لاين، على الإنترنت:

http: / /www.islamonline.net /arabic /mafaheem /٢٠٠٢ /٠٢ /article١.shtml

(٧) المرجع نفسه.

(٨) عماد توماس، حوار منقول عن كتاب «حوارات وقضايا»، منشور على الموقع الإليكتروني:

http: / /www.qenshrin.com /details.php?id=٨٩٥٧

(٩) يعقوب بيري، الآتي لقتلك، استبق واقتله:

htm.http: / /www.palestine-info.info /arabic /books /alkadem /kadem١٣

يمكن الرجوع، أيضا، إلى:

- يعقوب بيري، مهنتي كرجل مخابرات/ ٢٩ عامًا من العمل في الشاباك، ترجمة بدر عقيلي، عمّان، دار الجليل، ٢٠٠١.

(١٠) موقع جهاز الشاباك (جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي)، قضية كابوتشي (١٩٧٤):

http: / /www.shabak.gov.il /arabic /history /affairs /Pages /kaputchi-ar.aspx

(١١) يعقوب بيري، الآتي لقتلك، استبق واقتله:

http: / /www.palestine-info.info /arabic /books /alkadem /kadem١٣.htm

(١٢) الموقع الإليكتروني تبيان، المسيحيون العرب: هيلاريون كابوتشي... مثال عن موقع أبونا - ٣/ ٢:

http: / /www.tebayn.com /Tebayn٪٢٠Arabic /index.asp?pageID=١&SID=٥٣٥٥&Ln=En

(١٣) الموقع الإليكتروني تبيان، المسيحيون العرب : هيلاريون كابوتشي... مثال عن موقع أبونا - ٣/ ٣.

http: / /www.tebayn.com /Tebayn٪٢٠Arabic /index.asp?pageID=١&SID=٥٣٥٤&Ln=En

(١٤) موقع البي بي سي على الإنترنت:

http: / /news.bbc.co.uk /hi /arabic /news /newsid_١٠٥٦٠٠٠ /١٠٥٦٠١٧.stm

(١٥) الموقع الإليكتروني لجريدة «الثورة» اليومية السياسية شبه الرسمية في سوريا، ٣١/ ٥/ ٢٠٠٧:

http: / /thawra.alwehda.gov.sy /_print_veiw.asp?FileName=652616611200705310133306

(١٦) الجريدة نفسها، بتاريخ ١/ ٦/ ٢٠٠٧.

(17) http://www.aljamaa.net/ar/document/24310.shtml.

(18) http: / /www.thisissyria.net /2009 /02 /05 /syriatoday /02.html

(19) http: / /www.addounia.tv /index.php?p=192&id=1449

(٢٠) موقع مركز المعلومات والتأهيل لحقوق الإنسان، على الإنترنت

http: / /hritc.net /jornalistshl.php?action=view&newsID=249

(٢١) الموقع نفسه.

(22) http: / /www.moheet.com /show_news.aspx?nid=219275&pg=35

(23) http: / /www.alssiyasi.com /default.asp?browser=view&EgyxpID=17329

(٢٤) رسالة الوحدة والتسامح للمطران هيلاريون كابوتشي:

http: / /fatehforums.com /showthread.php?t=151774

* * *